

(2-3)

قال صديقي : حين تصل إليها افتح عقلك واغلق قلبك

## تائه في مومباي



فيصدر صوتاً يوقظ من مازال نائماً، في الأوقات الأخرى من اليوم يتلح ضجيج مومباي كل الأصوات الدينية، بما فيها الأناشيد التي تصدر عن معابد تحتضن الأفراح والأحزان وتمارس طقوساً تثير غرابة لدى من يراها لأول مرة، تنتشر المعابد في مبان مختلفة الحجم وتتضمن تماثيل ولوحات لرموز دينية مختلفة.. يصحو مالك الفندق الذي نزلنا فيه ليضع إكليلاً من ورود حول لوحة لرمز ديني، وتطوف يده بمبخرة يصدر منها دخان كثيف حول اللوحة ثم ينهي طقوسه بوضع يديه على ثلاثة مواضع، في وجهة أعلى الجبهة وعلى جانبي الوجه، في الشارع تتوقف دراجة نارية أو حتى سيارة أمام معبد مفتوح يمكن رؤية الرمز الديني فيه وتلقى التحية من المتوقف الذي يعود للانطلاق من جديد، آخرون يكتفون بوضع الرمز الديني في سياراتهم أو منازلهم، هناك من يضع أكثر من رمز على مقربة من مقود السيارة.

تتفق معظم ديانات الهند في تقديس الحياة ومعاملة كل المخلوقات بما لا يمس حقها في الحياة، وتلتقي ديانات عدة عند تحريم أكل اللحوم، فالهندوسية والسيخية والبيانية وغيرها من الأديان تحرم حرمان أي كائن حي من التمتع بحياته، فلا غرابة إذا أن ترى الأبقار تتجول بخطوات وثيقة من مكان إلى آخر تحرسها أعين الناس وطقوسهم، أو أن تشاهد الحمام تحلق قريبة منك والغريان لا تخاف من خطواتك تجاهها، لقد كان ابني ضياء ذو العامين من عمره مندشاً من بقاء الحمام في أماكنها القريبة منه وهو يخطو نحوها ويلوح لها كي تحلق عالياً، بينما هي تنظر نحوه باستغراب أيضاً كما لو أنها لم تعتد أن يلاحقها إنسان بغية إختفائها أو جعلها تحترق، وكانت تكتفي بالسير بشكل أسرع أو بالتراجع إلى الخلف، حين نحس اقتراب يد الصغير منها لم تفكر حتى بالطيران هرباً.. يعيش الجميع بسلام واحترام متبادل، ينتهون من تقدير البشر إلى تقدير الكائنات الحية الأخرى التي تراها في شوارعهم تقاسمهم العيش والأمان.

أعود إلى الأسئلة التي توقظها مومباي: هل ثمة علاقة بين قدرة الإنسان على التعايش مع جميع الكائنات وبين قدرته على العيش مع من يختلفون معه بالأفكار فقط؟ فمن لا يقبل العيش بوجود من يختلف معه بصفة كيف سيقبل أن يرى كل لحظة مخلوقاً آخر يختلف عنه بكل شيء شكلاً ومضموناً، ما لم ينته هذا التعايش بأن يصبح أحد المتعاشين وجبة للآخر؟ لا أحد هنا يمكنه أن يصدق أن مدناً تخلق من كل مظاهر الحياة، وأن حضارة وحيدة تحلق عالياً لا يمكنها الاستمرار في الحياة ما لم يكن هناك من يحرسها وما لم يكن طيراتها مرتفعاً، بحيث لا تقدر أحجارنا وكراهيتنا للحاق بها، لم أستطع رؤية حجر آخر في يد غير تلك التي في يد ابني الصغير، رغم أنني بذلت جهداً في تحريك عيني طويلاً.. بعد أسابيع تخلى ضياء عن البحث عن الحجارة وأصبح صديقاً لكل ما يتحرك.



بالغناء الذي توفره الأفلام، يكتفون بالصراعات التي يخلقها المخرجون ويتفنون في صناعتها، ويصبح كل صراع أو اشتباك هو جزء من فيلم حين تكسر القاعدة ويدخل اثنان في شجار وعنف، يجتمع المارون في دائرة واسعة كذلك التي تكررها المشاهد السينمائية ويظلون يتابعون مجريات الأحداث لا يتدخلون للفصل بين المتصارعين حتى يقتنع الاثنان أن قرارهما لم يكن صائباً تتعامل مع الأمر كما لو كنا نشاهد فيلمًا تفصلنا عنه شاشة تجرنا على عدم التدخل لفض الاشتباك، هذا ما تبرع به أحد الأصدقاء الهنود مزياً عنى الحيرة.

ها هو صوت أذان الفجر يعلو في إحدى مآذن الحي الذي نسكنه، ما أن يكمل المسلمون أداء فرضيتهم حتى يعلو صوت جرس المعبد معلناً عن وصول متدين جديد، فكل من يصل إلى المعبد عليه أن يتوقف ويحرك بإحدى يديه المسمار النحاسي المتوسط للجرس

بل للعالم خاصة بعد أن أقدم الحزب على اختيار رئيس للحكومة من جماعة السيخ وهم أقلية لا تتعدى نسبتهم 2% من إجمالي السكان ورئيس للبلاد من المسلمين وشكلت حكومة لا علاقة لها بالتناسات التي توسع الشروع الطائفية وتوقظ الحروب الدينية.

في الهند يعلو الإنسان فوق المكان، يصعب الاستمرار في الحديث عن الأماكن دون محاولات فهم الإنسان أولاً، قد تكون سمة شرقية، ففي مومباي تغلب أمواج البشر موج البحر وتعلو طموحاتهم مستوى المباني العالية، لا تهتم الهند بتشييد الأبنية وترى أماكن متواضعة تضم عقولاً رائدة وتحقق نتائج مذهلة على مستوى الإنجاز وفقاً لعبارة دقيقها قالها الرميل وليد بوكس، فإن العالم كلما خطا إلى الأمام تحجز الهند لها مكاناً وهو يطابق الواقع بشدة، فالبياني متناهية الصغر تخرج من أحضانها سلع وأدوات يصعب التصديق أنها أنجزت هنا.

تصمم أعظم برامج الكمبيوتر في غرف عادية يديرها عباقرة الهند الطامحون وهو ما دفع مايكروسوفت لإقامة أكبر مركز لها على المستوى العالمي بعد مركزها في الولايات المتحدة.

## سعة النفس

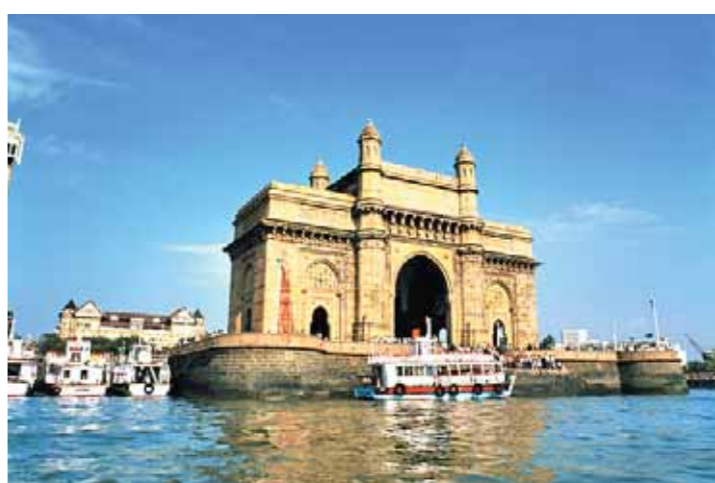
ألم تنتج عشرات الأفلام الوثائقية لتخبرنا أن هذه المدينة الأكثر ازدهاراً على مستوى العالم يبدو الأمر في الواقع نقيض ذلك، ثم ألم يجتهد مصطفى الجبزي وهو دبلوماسي زار الهند منذ أشهر في إظهار كل ما ينفر من هذه الأرض جعلها شائكة حلبة للمصارعة لا بقاء فيها إلا للأقوى، وهو ما غاب عن إدراكنا.

الجميع يضيء، لا أحد يتوقف، لا البشر ولا الآلات لئلا يكون الوقوف

في مرادهم.

في الانتخابات التي تلت الأحداث 2004 اعتذر الطرفان لبعضهما بطريقة لا تقبل اللبس، انتخب الجميع ممثل الحزب الأكثر اعتدالاً

في البلاد حزب المؤتمر الذي تتزعمه سونيا غاندي وتمضي به نحو مواطنة يتساوى فيها الجميع، وقد حملت نتائج فوز هذا الحزب الخالي من كل متعصب مقاجاة ليس للهند وحدها



في المواجهات العنيفة التي أخذت معها عشرات الضحايا من طرفي الخلاف، هندوساً ومسلمين، لسبب كان يمكن تجاوزه بدون الموت، تعيد التحليلات المحايدة حول الموضوع الأمر بالكامل إلى المتطرفين من الطرفين الذين أرادوا إشعال فتنة بين شركاء الوطن الواحد ليحققوا مكاسب سياسية وقد فشلوا في مرادهم.

في الانتخبات التي تلت الأحداث 2004 اعتذر الطرفان لبعضهما بطريقة لا تقبل اللبس، انتخب الجميع ممثل الحزب الأكثر اعتدالاً في البلاد حزب المؤتمر الذي تتزعمه سونيا غاندي وتمضي به نحو مواطنة يتساوى فيها الجميع، وقد حملت نتائج فوز هذا الحزب الخالي من كل متعصب مقاجاة ليس للهند وحدها

"لا تقلق"، ولم أحلم بعدد الابتسامات التي تلقيتها بدون سبب وهي مصدر الاعتقاد البعض أنها من الفضاضة كما قال الفكر الهندي امارتيا صن، فعندما كان يتلقى تعليمه في جامعة كامبريدج قالت له معلمته جوان ريبينسون اليابانيون مؤدبون أكثر من اللازم، وأنتم الهنود تتسمون بفضاضة زائدة، أما الصينيون فهم على الوجه الصحيح"، وقيل صن التعميم دون جدل لأنه إن رد على ادعائها سيكون قام بتأكيد نظرية المعلمة وسيعلبها دليلاً آخر لما تعتقد.

سرد هذه الواقعة جعلني أتذكر أن التصرفات لا تفهم دائماً بوجهها الصحيح، بل يساء فهمها أحياناً أشعر أحياناً بفراغات في أعين هندي ينظر نحوي، وربما يحاول المطابقة بيني وبين ذلك العربي القاسي الذي لم يحسن معاملة نجيب راعي الأغنام الذي انتقل من كارلا في الهند إلى دولة خليجية بحثاً عن تحقيق حلمه في الثراء فوجد نفسه راعياً في مزرعة أغنام يقاسي آلام الغربة وضياح الحلم وقسوة صاحب المال الذي يفضل أغنامه على إنسانية نجيب، تصدرت هذه الرواية "أيام الماعز" قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في معارض الكتاب العام الفائت، ونال مؤلفها بنيامين العديد من الجوائز، وحققت ثروة عوضته عن شقاء الغربة ومشقة النوم في حظيرة أغنام ليست له.

لم تصنع الرواية واقعاً جديداً في التعامل بين حضارتين متماسكتين، العربية والهندية، لكنها صنعت حذراً يبيد به كل من يحزم أمتعته للرحيل إلينا بحثاً عن سبل للعيش. خلال زيارتي للهند تمنيت القدرة على الاعتذار عن كل ما يبدر من قسوة في التعامل مع أناس مرهفون بأحاسيسهم، لم أسمع أكثر من عبارة

## استطلاع : صقر الصندي

في العام 1853م انطلق من هنا أول قطار عرفته الهند، وما زال منطلقاً نحو غاياته في إيصال مئات الآلاف يوميًا نحو وجهتهم، كل ما تغير هم الركاب أما محطة مومباي فهي الأكثر تمسكاً بفنها ودقة إنجازها، لقد صممها المهندس الإنجليزي جورج ويتت بمناسبة زيارة أمير ويلز والملكة، وها هي اليوم تعمل بدون أية مناسبات، غير أن أحداً ما يريد الانتقال إلى مدينة أو مكان بعيد بتكاليف أقل وسرعة أكبر.. ذات المصمم قام بهندسة بناء محكمة القضايا الصغيرة، وكما تقول وثائقها فإن كل القضايا تبدأ صغيرة ثم تكبر، وتخص هذه المحكمة بالفصل في القضايا قبل أن تنتسعب، كم نحن محتاجون لمثلها، فكل صراعنا تبدأ متناهية الصغر ثم لا تنفع معها محاكم الدنيا مجتمعاً.

أرادت الملكة أن ترى قطعة من لندن تسكن قلب الهند، وحققت لها هذه التحفة المعمارية محطة مومباي، فهي ذات مظهر بريطاني يحث تشبه إلى حد كبير رجلاً انجليزيا يرتدي معطفاً وقبعة وابتسامه جاء لالتقاط صورة بزيارته لأرض بعيدة، في الأعلى توجد ساعة بجبن تدور ببطء يجعلك تعتقد أنها متأخرة عن الزمن وأنها لم تعد صالحة لاحتساب الوقت الحاضر، وهو مجرد ظن، فهي ساعة دقيقة الحركة حثت الهند دوماً على التقدم نحو المستقبل الذي يلخصه خير نشرته وكالة الفضاء الهندية التي تمكنت من النجاح في مغامرة الوصول إلى المريخ لتصبح الدولة الثالثة التي تتمكن من ذلك، ما يزيد الخبر نشوة أن الجيران حاولوا لكنهم ما زالوا أبعد عن الوصول إلى مدارات الكوكب.

تجنهد الصين للوصول إلى هنا كجهداها في الفضاء، لكنها لم تنجح على الأقل حتى الآن، لا وجود كتيف لبضائنها ولا مشاعر إيجابية يحملها الناس بل هناك مخاوف من كل ما هو أجنبي، أحياناً تتجاوز هذه المخاوف السلعة التجارية إلى البشر أنفسهم، أشعر أحياناً بفراغات في أعين هندي ينظر نحوي، وربما يحاول المطابقة بيني وبين ذلك العربي القاسي الذي لم يحسن معاملة نجيب راعي الأغنام الذي انتقل من كارلا في الهند إلى دولة خليجية بحثاً عن تحقيق حلمه في الثراء فوجد نفسه راعياً في مزرعة أغنام يقاسي آلام الغربة وضياح الحلم وقسوة صاحب المال الذي يفضل أغنامه على إنسانية نجيب، تصدرت هذه الرواية "أيام الماعز" قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في معارض الكتاب العام الفائت، ونال مؤلفها بنيامين العديد من الجوائز، وحققت ثروة عوضته عن شقاء الغربة ومشقة النوم في حظيرة أغنام ليست له.

لم تصنع الرواية واقعاً جديداً في التعامل بين حضارتين متماسكتين، العربية والهندية، لكنها صنعت حذراً يبيد به كل من يحزم أمتعته للرحيل إلينا بحثاً عن سبل للعيش. خلال زيارتي للهند تمنيت القدرة على الاعتذار عن كل ما يبدر من قسوة في التعامل مع أناس مرهفون بأحاسيسهم، لم أسمع أكثر من عبارة

